

رسائل إخوان الصفا.. كتاب جمع بين الناسوت واللاهوت

مؤلفون مجهولون استبقوا من جاء قبلهم وأدهشوا من أتى بعدهم



محظور الدين والسياسة ومنظور العلوم والأفلاك في رسائل ملفزة

ويضيف الباحث سعيد زايد في بحثه "رسائل إخوان الصفا"، أن أول ظهورهم كان في البصرة خلال بداية أيام بني بويه، إلا أن جماعتهم بلا شك تكونت قبل ذلك، وبقيت تعمل في الخفاء بمختلف الأصقاع.

ومهما يكن من أمر فإن جماعة إخوان الصفا، ليست على هذا الحجم من الخطورة التي يتشكك بها الفكر التامري حين يعجز على قراءة منهج مجموعة السخاسية، ولا هي جماعة بسيطة الطرح ساذجة التوجه أو متشقة المنطق في عصر شديد التعقيد ومتشابك العقائد والأيديولوجيات في دولة كانت تعتبر ذلك الوقت من أقوى ما تبقى من الإمبراطوريات التي لم تغب شمسها بعد.



في ذلك الوقت كانت البصرة تعيش واحدة من أخصب الفترات في تاريخ الفكر العلمي واللغوي في العالم العربي والإسلامي، بل وفي العالم، ففيها قامت المعتزلة وفي مسجدها اخترعت أفكار الحسن البصري، وواصل بن عطاء، وفي مسجدها أعلن الأشاعرة أفكارهم المخلصة للسنة، حتى الجماعات السرية لم تكن بالغربية عنها.. ومن هناك بدأ "إخوان الصفا" أزمة عصر، والذين يرى باحثون أنهم أطلقوا نظرية النبوءة والارتقاء التي أطلقها داروين لاحقاً في 1882.

الرسائل في نشر الفلسفة الأفلاطونية في العالم الإسلامي، وذلك لما تضمنته من قيم أخلاقية يعول عليها في بناء الدولة وتنظيم المجتمع الذي لا يمكن أن يستقيم دون أخلاق تنظم علاقاته وقيم تحكم سياسات دولته التي ينبغي لها أن توفق بين الحكمة والمصلحة والفضيلة. لا بد من التذكير أن المفكر والناقد والأديب العربي الكبير طه حسين، قد سبق له أن تفتن إلى قوة وأهمية هذه المجموعة الثقافية التي اكتفت أن تسمى نفسها بـ"إخوان الصفا"، وجاء ذلك في مؤسسه هنداوي للرسائل والتي صدرت في أربعة أجزاء، يكتب أصحابها في الموسيقى، ورسالة أخرى في "الأصل أو المسألة"، والصورة والحركة والزمان والمكان.. إلخ مما يدل على أن هذه الجماعة تحمل مشروعا غاية في التنوع والشمولية والرغبة في الإحاطة بكل شيء، وذلك فيما يشبه الويكيبيديا أو الإحاطة الموسوعية في عصرنا الحديث. هل كان هؤلاء حقا، ما يشبه محرك بحث في مفهومنا المعاصر أم مجرد جماعة تروج لمذهب فكري وعقائدي يشكك في الثوابت ويدفع ويشجع للانقلابات منها؟ ماذا أهم الكثير من الكتاب والمفكرين الذين عاصروهم أو جاؤوا بعدهم بسنوات، ولماذا يتهم بعض الموسوعيين بالأخذ منهم ثم معاداتهم كما حدث مع المؤرخ وعالم الاجتماع التونسي عبد الرحمن بن خلدون؟ وللمزيد من النقص في هذا المجال، فلا بد للعودة إلى المصادر والمراجع، إذ يقول الباحث الموسوعي عمر فروخ، في كتابه "إخوان الصفا.. درس، عرض، تحليل"، إن الفيلسوف والأديب الشهير أبوحيان التوحيدي، أول من أتى على ذكرهم بكتابه "المقاسبات"، حينما سئل عن بعض رجالاتهم، فحدث عن "جماعة لأصناف العلم والوان الصناعة"، وأذاع "أسماء رهط منهم كابي سليمان محمد بن معشر البستنتي، وأبي الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبي أحمد المهرجاني، والغوفي وغيرهم" مضيفا أن هؤلاء الأفراد "قالوا إن الشريعة قد بُنيت بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة" فوضعوا بينهم مذهباً "زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفؤن برضوان الله".

إخوان الصفا (دون همزة) هي عبارة عربية قديمة وردت منذ عصر ما قبل الإسلام في شعر أوس بن حجر، الذي تسمى تلازمه بـ"عبيد الشعر"، ومنهم زهير بن أبي سلمى، في قوله "وودع إخوان الصفا"، وكذلك وردت نثراً في باب "الحمامة المطوقة" بكتاب كلبية ودمنة لابن المقفع، الذي قال فيه الملك "بشليم" للفيلسوف "بيديا"، "قد فهمت مثل المتحابين يقطع بينهما الكذب الخائن النمام، وما يصير إليه أمره، فأخبرني عن إخوان الصفاء كيف يبدأ تواصلهم، ويستمتع بعضهم بعضاً".

قال الفيلسوف "إن العاقل لا يعدل لصالح الأعداء شيئاً من العقد والمكاسب؛ لأن إخوانهم هم الأعداء على الخير كله، والمواصون عندما ينوب من مكره، ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والظبي والغراب والجُرْد والسُّحفاة؛ قال الملك: وكيف كان ذلك؟" وطلق الفيلسوف الهندي يتحدث مستطرداً عن جدوى التعاون بفضل الحكمة والذكاء، وضرورة تجنب المندسين والحذر من المتنفذين والانتهازيين، في سبيل الوصول إلى بر الأمان، وذلك في حكاية على لسان الحيوان.. الحيوان الذي جعله أدباء وفلاسفة تلك المرحلة. ومن جاء من بعدها - مطية لتلج الحكمة ونقد فساد السلطة - من أمثال ابن المقفع في رائعته المنقولة عن الأدب الهندي "كليلة ودمنة"، مروراً بإخوان الصفا في "رسالة الحيوان" التي تحصل بعداً علمياً، ومن بعدهم العبقري الفارسي، الصوفي فريد الدين العطار في "منطق الطير"، ووصولاً إلى أشعار لافونتين الفرنسي وأحمد شوقي المصري في الأدب الحديث، وما تخللها من أدب العبرة والنصيحة.

أزمة عصر

"رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء" هي مجموعة من 52 رسالة كتبها الجماعة المجهولة المسماة إخوان الصفا، والتي ظهرت قديماً في مدينة البصرة، من أرض العراق، في أواخر القرن العاشر وبدايات القرن الحادي عشر. وكان لهذه الرسائل تأثير كبير على أشخاص من أمثال محي الدين بن عربي، ونقلت تبسوة مثيرة للريبة والجدل وما يمكن أن تثيره من تاويلات وتخمينات: كلمة

إن كانت أواخر العصر العباسي، عصر تراخ وتراجع وتقهقر سياسي من طرف الدولة المركزية في بغداد، فإنها -وبلامانة- عصر مواجهة مع الذات، وتقدم علمي وثقافي جمع كل الشركاء من منتصرين ومهزومين على طاولة حوار واحد.. وصارت الثقافة الإسلامية لا تناقش بلسان واحد، ولا يقع التحدث عنها بمنطق واحد.

فعل الفكر اليوناني فعلة في تلك الشعوب التي لم تعد تفكر بمنطق واحد وإن كانت تتحدث بلسان واحد أو تدين بدين واحد، وأدلى الجميع بدلوه دون حياء فبرزت ثقافة التنوع والاختلاف وسط منطوق أهوج وأزعن لدولة مستضعفة لا تمتلك إلا القمع وسيطة للإقناع، ولكن، هيبات.. ولي عصر الرأي الواحد والحزب الواحد، وحتى الكرياح الواحد.

إمبراطورية معرفية

وبالعودة إلى ما أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، في مبادرة نبهية وذكوية، يدور كتاب "إخوان الصفا وخلان الوفاء" حول إشكالية تنوع الأجناس على المستوى الأنطولوجي، وإشكالية الاختلافات بين المذاهب الفلسفية والدينية على المستوى المعرفي والعداء الطائفي على المستوى السياسي، في القرن العاشر، ومطلع القرن الحادي عشر.

ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء: الشمول الأول، مرجعية الأشياء إلى مصدر واحد، والشمول الثاني النسبة الحالية بين كل الأشياء، والشمول الثالث، ميل كل الأشياء إلى غرض واحد.

وتحاول رسائل إخوان الصفا أن تقدم حلولاً لهذه الإشكاليات الثلاث من خلال شمولية الأشياء ثم العلوم ثم الأمم. هو كتاب أثيرت حوله الريبة والشكوك، وخلف خلفه النقع والغبار والتساؤلات كما فعل الأثر المنسوب لـ"إخوان الصفا وخلان الوفاء" في سابقة لم يعرف لها الأدب العربي مثيلاً، وذلك ضمن ما يُعرف بـ"الأدب السراني" الذي كتب بين (913 - 1010).

أحذر الأديباء والدارسون في تصنيفه وتوصيفه، فهل يُنسب إلى التعاليم الصوفية والسنينة والمعتزلة أم إلى الفكر الشيعي الإسماعيلي، وغيره من التعاليم الفاطمية والباطنية التي طبعت المرحلة في ذلك الوقت المضطرب من أفول الدولة العباسية.

كل شيء وارد ويزيد الأمور التباسا وتعقيدا في عصر ضلعت فيه الدولة واستقوت العصبية، لكن السجلات الفكرية بلغت أوجها ضمن مشهد انصهار ثقافي لم يسبق له مثيل بين مختلف الثقافات، وبلغة عربية استطاعت أن تجمع وتؤاخي بين الفارسية والهندية والمنقولية والسريانية وغيرها داخل "إمبراطورية معرفية" لا يمكن أن تشبهها الآن إلا بالعوالم.. هذه العوالم التي من شأنها أن تترك المجتمع، تخرج الجميع، وتجعل الجميع يتفق حولها أو يختلف.

وفي هذا الإطار، يشرح عبد اللطيف الطيباوي في كتابه "جماعة إخوان الصفا"، أنه بعد أعوام من الإنزواء بسبب تسلط المعتزلة والأشعرية، تغلب أسراء آل بويه على بغداد عام 334هـ، فتفتتت كل الجماعات السرية الصاعدة لأن الحكام الجدد كانوا من الشيعة الذين لا تهمهم الجدالات السنينة كثيرًا، في هذا الوقت فقط بدأنا نسمع عن "إخوان الصفا".

يبدو واضحاً أن الأيديولوجية السياسية والعقائدية قد أحدثت حالة من الضبابية وأعمت عيون الكثير من النقاد والدارسين، لكن المؤكد أن إخوان الصفا، ليسوا مجرد دعوة مذهبية تنسفر تحت الكتابة الأدبية والأطروحات العلمية، فلو كان الأمر كذلك لأعلنوا عن أنفسهم صراحة في عصر يتصارع ويتطاحر فيه الجميع بآرائهم دون حياء ولا حجل، لكن الأمر أشبه بناد ثقافي ينتصر فيه الجميع للمعرفة دون الانتصار لفريق على آخر، بدليل أنهم كتبوا في الرياضيات والفلك والفيزياء وحتى التنجيم.. فهل تحتمل هذه المعارف الاصططاف الطائفي والمذهبي؟

ولكي نلتقي عند البدايات من المسميات في سبيل الاختلافات عند التفاصيل، فلا بد أن نقر بالتسمية التي تبسوة مثيرة للريبة والجدل وما يمكن أن تثيره من تاويلات وتخمينات: كلمة

عميد الأدب العربي أشار إلى العناية بكتابة ألفاظهم وأساليبهم، ففيها خيال كثير، وتشبيه متقن، وألفاظ متخيرة، ومعان ميسرة. رسائلهم لا تقل أهمية عن مقدمة ابن خلدون، بل إن مفكراً مثل رشيد الخيون يرى أن مؤسس علم الاجتماع قام على أثرهم دون أن يشير إليهم بالمعنى الواضح. وقال المفكر فراس السواح إن الموت عندهم كما استخراج الجنين من الرحم. من هم إخوان الصفا الذين أثاروا من الخيال مقدار ما أثاروه من جدل لم يهدأ منذ ألف عام وأكثر؟

انفسهم أن يُصيبهم ما كان يُصيب الزنادقة والمحدثين فكتبوا أسماءهم، وبثوا رسائلهم بين الوراقين وهوبوها للناس ليصلوا إلى الغاية المقصودة من وضعها دون توقع.

ويضيف الباحث قائلًا "كتمان الأسماء أفسح المجال لاختلاف الناس فيمن وضع هذه الرسائل، فقال فريق إنها كلام بعض الأئمة من نسل الإمام علي بن أبي طالب، وقال فريق آخر إنها من تصنيف بعض منكملي المعتزلة في العصر الأول، وامتدت القائمة لتشمل عدداً من كبار أسماء المقيدين والأديباء، مثل أبي سلمان محمد بن معشر وزيد بن رفاعة، وآخرين".

أخيراً، أعيد إصدار كتاب "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء" ضمن سلسلة تيسير التراث عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. هذا الحدث ليس روتينياً، ولا على سبيل النسخ في التراث الذي ساد ثم باد كما قد يتخيل البعض. إنه يتمحور حول موضوع غامض في الدقة والأهمية من حيث طبيعة تناول مثل هذه المطبوعات التي أحييت بهالة من السرية والغموض منذ إصداراتها الأولى، فكانما أفرج عنها للمرة الأولى ثم أنه يطرح سؤال جدوى التأليف الجماعي المستتر داخل جماعات لا يسعى أي فرد منها للبروز والنجومية بمعزل عن رفاقه الذين أثاروا السرية، واستعانوا على أسمائهم الحقيقية بأخرى سرية أو حركية أو ذاتية في إطار مجموعة "محفل سري" قد يثير الريبة والتشكك، داخل ثقافة التقيّة والاختفاء ضمن مجتمعات يحكمها الطوطم والامتثال لرأي الحاكم والخنوع لعقيدته.

"رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء" كتاب ينتمي لتلك المصنفات السرية بمجرد أن تجهل اسم مؤلفه ثم تعلم أنه لمجموعة من المؤلفين فيزداد ارتباكك، وتذكر عندئذ، أنك إزاء جماعة سرية لا تدرك عواقبها، ولا عواقب من قرأها واستهدى برسالتهما أو بشر بكتاباتهما في أجواء تحاصرها محاكم التفتيش ويلاحق فيها كل من خرج عن طوع الحاكم.

وحيث تعلم أن رسائل الصفا، كتاب يحتوي على أطروحات متعددة في الفلسفة والعلوم والمنطق والعقيدة والتذوق الأديبي، يزداد عجبك رعباً، وتستشعر حالتها، ساعة الخطر، ذلك أنه يقدم.. ومن خلال سرانيتها وعدم الإفصاح عن مؤلفيه.. بدائل جديدة لحكم الدولة والمجتمع.. وتلك الطامة الكبرى.

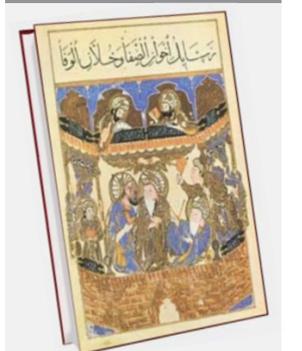
اعتادت ثقافتنا، ومنذ القرن العاشر الذي ألف فيه الكتاب، وربما أبعد بكثير، بسان كل مجهول النسب هو مجهول العواقب والمصائر، لذلك استنكر الجميع هذا الكتاب الذي يضم 52 رسالة، وكأنه يضم 52 مصيبة في التفكير والمنطق العلمي والتذوق الأدبي والنهج السياسي.



مشروع غاية في التنوع والشمولية

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

كتاب قال عنه طه حسين متسانلاً في حيرة العارف "مُغلق المعاني، كلماته عسيرة الفهم، مؤلفوه مجهولون مُعارضون للسلطة، أراؤهم تتجرا على ثوابت الدين والسياسة، هل يمكن تصور أن يحتل حيزاً كبيراً بتاريخ أمة الإسلام؟" ومع ذلك، ظل هذا الكتاب لغزاً، نشتهي العودة إليه في كل ساعة ضيق وشك، ورغبة في التأكد مما قاله السلف الصالح والطالح على حد سواء.. إنهم يمثلون أهم وأقدم أيديولوجية فكرية سياسية وسرية في العالم العربي..



أول ظهورهم كان في البصرة بداية أيام بني بويه إلا أن جماعتهم تكونت قبل ذلك التاريخ وبقيت تعمل في الخفاء بمختلف الأصقاع

ولو كان الأمر في عصرنا لانتسبت إليهم جميع الفئات العمرية، والسياسية والدينية، وذلك لما يمثله هؤلاء من جرأة في التمرد على واقع ركد ثم إنهم يناقشون العلم بمنطق لا يخلو من الحجة والإقناع.. ومع ذلك أخفوا أسمائهم فهل كان ذلك خوفاً واحتياطاً أم رغبة في التواضع ونكران الذات؟ ولا ينبغي أن ننسى بأن المؤلفين مجهولون فهل الأمر يتعلق بدعاية تسويقية أم هو حقا، "منشور سري" بكل ما تعنيه هذه الكلمة في عصرنا من دلالة ومعنى؟

هالة من السرية

في هذا الصدد، يروي الباحث سليم الجندي في أطروحته "أبوالعلاء المعري وإخوان الصفا"، أنه لما كانت الصحائف مُستعملة على ما لا يوافق الدين والسياسة، خاف أصحابها على